

تعليم الأميين ووسائله

الأستاذ سلامة موسى

المفروض أن القراءة والكتابة هما الخطوة الأولى التي يجب أن يخطوها الصبي نحو الثقافة . وليس شك في قيمتها . بل إن هذه القيمة لتزداد في أيامنا أكثر مما كانت في أى عصر مضى . فإن تعدد العلوم وتنوع المعارف ، والتطور الذى لا ينقطع فيها — كل هذا يجعل القارئ المثقف يشغل من المجتمع بل من الطبيعة أكثر مما يشغل الأمي . وحياته لهذا السبب أكثر حيوية ، ورؤيته ورؤياه معا أعمق وأعمق ، وفي حين ينظر الأمي الجاهل النظرة القروية لشئون العالم والمجتمع ينظر المتعلم القارئ الذى انتفع بقراءته وتوقف نفسه النظرة العالمية لهذه الشئون . ولكن من العبث أن نستمر في هذه الموازنة . وحسبنا أن نقنع منها برجلين : أحدهما يداوم على قراءة الجريدة ويتفهم أخبارها والآخري يجهل القراءة .

ولكن يجب ألا نخذ الثقافة بحدود القراءة . لأن الثقافة سبقت القراءة ، وهى أكبر منها وأعم . والثقافة هى فى الأصل مجموعة المعارف والمقائد والآراء والعادات التى تصل بين الفرد وبين المجتمع ، وبينه وبين الطبيعة . فلإنسان البدائي ثقافة ، وقد عاش بها وتوارثها عشرات الألوف من السنين قبل أن يهتدى إلى الزراعة ويعرف الحضارة . فإن اختراع القراءة والكتابة لا يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة . ولكن الإنسان قبل ذلك كان يصيد الوحوش وينصب لها الفخاخ وينحت الحجر لكي يصنع منه الأسلحة . وكان يهتدى في حياته ببعض العقائد ، ولعله كان يعرف النار أو الزراعة ويميز بين النبات المفيد وغيره . وكان يأوى إلى كهف أو يبنى بيتا بدائيا من الطين والقش ، أو يصنع أنية من الفخار . فمل ذلك كله وعرف هذه المعارف جميعها وأكثر منها قبل أن يعرف القراءة والكتابة . وفلاحنا فى الوقت الحاضر يعرف عن الزراعة شيئا كثيرا توارثه بالتقاليد كما يعرف كذلك كثيرا من عقائده الدينية وأخلاق المجتمع الذى يعيش في بيئته دون أن يعرف القراءة . فيجب لذلك أن نسلم بأن الثقافة قد سبقت القراءة والكتابة ، وأنها أكبر منهما وأعم ، والقراءة والكتابة هما وسيلة من وسائل الثقافة ولكنهما ليستا الوسيلة الوحيدة إليها .

ونحن فى عصرنا هذا نترود من الثقافة ببجالة وسائل . فإن الزائر لأحد المعارض الصناعية أو الزراعية لا يحتاج إلى أن يكون قارئاً لكي يفهم المعروضات ويستبصر بها . وكذلك الشأن

في المتاحف أو في كثير منها بل نحن لمحض كوننا نعيش في مجتمع راق نرق برفية ونكتسب عاداته ومعارفه التي نستبصر بها في معاشنا وكسبنا وصحتنا وأخلاقنا وعقائدنا حتى ولو لم نقرأ. وإذا عمدنا إلى شاب في السادسة عشرة من عمره قضى أكثر من نصفه في المدرسة وامتحن في ثقافته لوجدنا أنه حصل من المجتمع الذي يعيش فيه على معظم ثقافته الاجتماعية والاقتصادية والفنية والأخلاقية والدينية. وأن القليل جدا من هذه الثقافة هو الذي حصل عليه من المدرسة عن سبيل القراءة. وليس هذا بالغريب إذا ذكرنا أن مثل هذا الشاب ينتقل في مدينة كبيرة مثل القاهرة ويرى فيها آثارا مختلفة من الحضارة، ويسمع كل يوم إذاعات الراديو ويختلف إلى الدور السينمائية ويشهد الموكب والاحتفالات الوطنية ويزور معارض المدينة ومتاحفها ويتحدث إلى سكانها.

ومثل هذه الحال يجب أن تدلنا على وسائل أخرى لنشر الثقافة غير وسيلة القراءة. ونكرر القول بأننا لا نستصغر شأن القراءة. ولكن الأمة التي يبلغ الأميون فيها نحو ٧٠ أو ٨٠ في المائة من سكانها لا يجوز لها أن تنتظر تعميم القراءة والكتابة لكي تثقف أبناءها بل يجب أن تبحث عن وسائل التثقيف الأخرى وأن تلجأ إليها.

وفي ظروفنا القائمة حيث تدهورت الصحة العامة حتى صار متوسط ما يحمله كل مصري في جسمه ثلاثة أمراض نحتاج إلى التثقيف الصحي بأسرع ما يمكننا ولا يسعنا أن نتنظر تعميم القراءة كي نععم الثقافة الصحية. وكذلك الشأن في الثقافة الزراعية التي هي حرفة الشعب الأولى. وأول وسائل التثقيف — بغير قراءة — هو محطة الإذاعة. فإننا يمكننا بإيجاد بضعة أجهزة للاستقبال في القرى أن تثقف الفلاحين. فإن الراديو يتمتع وينفع. فالفلاح يجذب إليه بالأغاني ويسمع فيما بين هذه الأغاني أحاديث طليعة عن الصحة والزراعة والدين والأخلاق وأخبار العالم السياسية والاجتماعية، وهو يفهم جميع هذه الأحاديث إذا لم تكن مملة بطولها، غريبة من أذنيه بلغتها. ومثل هذه الأحاديث يجب ألا تزيد على ربع ساعة بل يجب أن يكون منها الحديث الذي لا يتجاوز خمس أو عشر دقائق يبسط فيها الموضوع بإيجاز لا يغفل وبلغته حية نضرة ليست هي اللغة العامية الصرفة ولكنها اللغة المبسطة التي يستطيع الفلاح أن يفهمها. ولا نقصد هنا مع ذلك إلى مقاطعة اللغة العامية إذ يجب أن تلجأ إليها إذا خشينا الفهم السيء.

ولا نستطيع أن نقول إن محطة الإذاعة تؤدي واجبا من هذه الناحية. فإن أحاديثها طويلة يحتاج الحديث فيها إلى عشرين دقيقة. وقد استغلتها الحكومة واستخدمت موظفيها غير المدربين على الإلقاء وترتيب الموضوع حتى صار الجمهور يكره الأحاديث. ولا بد من معالجة هذه الحال. فإن أطول مدة للحديث يجب ألا تزيد على ربع ساعة كما يجب اختيار المحذنين من المدربين الذين يستطيعون الشرح باللغة المبسطة.

ووسيلة أخرى للتنقيف من طريق غير طريق القراءة هو السينما توغراف، ولا تخلو عاصمة من عواصم العالم المتعدن بل لا تخلو مدينة من مدنه الكبرى من دار سينمائية ثقافية تختص بعرض الأفلام المفيدة المنيرة عن الصحة والنبات والحیوان والتاریخ والجغرافيا والصناعات وغيرها . ويمكن وزارة المعارف أن تؤسس دارا سينمائية ثقافية لسكان القاهرة . وهى قد اقتنت مئات الأفلام الثقافية التى تعيها للدارس . ولكن من حق الجمهور من العامة أن يستنير بهذه الأفلام . وإذا صحت التجربة الأولى فى القاهرة فإنه يمكن تعميمها فى سائر المدن . ولكن مثل هذه الدور سينتصر نفعها بالطبع على المدن . أما الريف فيحتاج إلى وسائل أخرى .

فقد قلنا إن محطة الإذاعة تستطيع أن تصل إلى الأميين فى الريف وتنقدهم بأحدث قصيرة طلية عن مختلف شئونهم الصحية والزراعية والاجتماعية . ويمكن الحكومة أن تشرع فى إنفاذ هذه الخطة منذ الآن بأقل التكاليف ، لأن كل ما تحتاج إليه هو شراء بضعة آلاف من أجهزة الاستقبال توزع على القرى . ولكن هناك وسيلة أخرى لتنقيف الفلاحين سبق أن حدثنا عنها المسترخون نيتيل مؤلف قصة " الدكتور ابراهيم " وهو قد اعتمد فى جمع معلوماته على أبحاث المعاهد التربية فى سويسرا .

والأساس لهذه الوسيلة هو الأتومبيل . فانه يمكن أن يجعل منه متحفا متحركا ينتقل من قرية إلى أخرى ويحمل مئات النماذج لجسم الإنسان وأعضائه فى المرض والصحة . وللزراعة التى أهملت ، والتى غنى بها من حيث الحرث أو التسميد أو اختيار البذور ، مع ألوان من التربة . ومع الموكل بهذا الأتومبيل ميكروسكوب يرى به الفلاح ديدان البهارسيا والأنكستوما . كما يجب أن يكون به " فانوس سحرى " لتكبير الصور وإبرازها . وبالطبع لن يقتصر الشخص الموكل بالشرح على الصحة والزراعة ، إذ يجب أن يكون حديثه طليبا مختلفا ، بحيث يستطيع أن يعرض عليهم صورة أحد السياسيين أو إحدى المدن كما تكون لديه مجموعة من الطيور النافعة ونماذج تشرح الجاموسة إلى غير ذلك . وهو يحول فى الريف فيحط فى إحدى القرى نحو أسبوع يشرح فيها للأميين وللقارئین كثيرا من هذه المعارف التى تتصل بحياتهم القروية وبمصلحتهم الاقتصادية والصحية . ثم ينتقل إلى قرية أخرى .

وخلاصة القول أننا يجب أن نشط لتنقيف الأميين ، ولا ننظر تعميم القراءة والكتابة بينهم . فإن محطة الإذاعة تستطيع أن تنقيف الريفيين بأسلوب جذاب موجز ، والعامة فى المدن يمكن أن ينتفعوا كثيرا بالنفراج فى دار سينمائية ثقافية . كما يمكن أن نستخدم المتحف المتنقل فى القرى .